كلمات

هل من ربيع آتٍ؟

بعد أيام، تستيقظ الطبيعة من سباتها، وترتدي شيئاً فشيئاً حللها وحلاها، لتعود إلى ما كانت عليه من بهاء ورواء.

تتفتق الأشجار، وتتفتح البراعم، وترجع الطيور إلى أعشاشها، وتلبس الأرض ثوباً أخضر، توشيه الزهور، بألوان زاهية فاتنة، تستهدي القلوب، وتسرّ العيون، وتحيّر الأفكار.

تنساب السواقي فوق الحصى، وبين الأعشاب، وتحت الظلال الوارفة، وفي خريرها نغم الشوق والحنين، إلى فصل وادع معطاء.

ترفرف الفراشات بأجنحتها الصغيرة الملوّنة، وتتنقل من زهرة إلى زهرة، ومن غصن إلى آخر، وكلها فرح ومرح، وسعادة وصفاء.

تصفو السماء وتبتسم بعد عبوسها، وتستقبل أسراباً وأسراباً من العصافير المزقزقة، والحمائم الساجعة، والعنادل المغرّدة في عرس الطبيعة السخيّة.

أما النّاس، فسوف تتساءل هل يتزوّدون عندها، في غمر الوباء والتلويث البشري الأصل، جميع أسباب البشر والغبطة؟ هل ينطلقون إلى الحقول النضرة والبساتين الزاهية، لينعموا في حضن الطبيعة السمحة، بما يصبون إليه في عمق أعماقهم من سحر وجمال؟

نحن في حاجة إلى الطبيعة، وننطلق حتى من طبيعتنا العفوية، أكثر مما تحتاج الطبيعة إلينا بأشواط. الربيع خير الفصول فيها وأسناها، لأنه فصل الحب والحسن معاً، ففي الربيع لا تتفتّح الأزهار والرياحين فحسب، بل تتفتّح القلوب للوجد والهيام، وتتفتّح قرائح الشعراء لتجود بأروع القصائد العاطفية وأكثرها رقّة وحناناً، وتتفتّح الحياة بكل ما فيها من معطيات ومواهب وفنون.

ليتَ الربيع دائم، ليت، أقله، حياتنا كلها ربيع!

إلامَ نطلّ مع إطلالة الربيع إطلالة إنسان على سرادق عزاء ونحمل أزهاره إلى المقابر، فنسير في حياتنا البائسة كمن يسير وراء نعش يجرّ وراءه نعشاً بدلاً من أن نحيا في فرح الحياة ونضرة النسيان.

أليس الربيع بسمة الطبيعة المتجددة التي تجود بعطائها. ولا قيمة للعطاء إذا لم ترافقه بسمة الرضى؟ أليس في قلب كل شتاء ربيع يختلج ووراء نقاب كل ليل فجر يبتسم؟

هل ترانا نبقى شواذاً أو إستثناء يؤكد القاعدة في بيئة شاء الله، فالطبيعة أن تتميّز بتوزّع متوازن للفصول الأربعة؟

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه